

# تعقيب على "... دم مهدور سياسياً"

## زياد الصائغ

(...) يتبدى متقاطعاً ما خطّه سمير قصير في مقالته "انتفاضة في الانتفاضة"، وما كتبه جهاد الزين في "صلة وصل" أول من امس: "ذهب دما ثقافياً... لا سياسياً... هذا الدم الذي سال لاسباب سياسية بسبب زبائنية وطائفية البنية السياسية اللبنانية". التقاطع قائم في أن محتوى المقاليتين يخرج عن مألوف تشكيلات المفردات السياسية التي يحفل بها قاموس سياسيينا على تنوع انتماءاتهم. خروج محتواهما عن المألوف يستند الى قراءة تاريخية - سوسولوجية، وجيوبوليتيكية للواقع اللبناني مع نفس علماني ينأى عن كل العقائديات، ليس الديني منها وحسب، بل الحزبي حتى، لمصلحة استشراف مستقبل يُمسي فيه اللبنانيون مواطنين لا رعايا. المواطنة اثبتت أنها تنشئ فاعلية سياسية. الرعاية تتبع الزعيم مصفقة وتشرع مزاجية موافقه اذ هو ضامن حقوقها، والطائفة التي اليها تنتمي. المجتمع اللبناني، كما كان يراه قصير، مسيس طائفيًا ومذهبيًا على قاعدة استنزاف بأجندة خدمات. تباع فيها كل القيم والمبادئ. استنفار الغرائز فيها سهل. تبرير التحالفات فيها خطابي. التملص من التحالفات نفسها دهاء. التسالم في ما بين رؤوسها تفرضه اللحظة. التناحر في ما بينهم جاهز يستجيب مقتضى المتغيرات. في التسالم والتناحر، الجميع دون استثناء، عدا القادة السياسيين، وقود في آلية الانجاز، وشهداء في سبيل قضية!

في ما سبق، كان قصير يبحث عن كوة ما يخترق من خلالها ما برع في توصيفه وتفكيكه جهاد الزين: "البنية الحالية - المتينة التماسك طائفياً وزبائنيًا - للسياسة اللبنانية". إنبرى لاحداثها بالفكر القانع بتغيير ما من خلال بروباغندا اعلامية ملتزمة قضايا المواطنين لا الرعايا. القاعدة لا الرأس. الثابت لا المتحوّل. القيمة بذاتها لا الفائدة المستفلة. أخطأ ربما في التكتيك. لبنان بل العالم العربي أثبت أنه لا يحتمل الحداثيين الآتين من عقلانية ناقدة بهدف التطوير القيمي لا التقني.

منذ الـ 1943 لم تقم في لبنان دولة بالمعنى الفلسفي والقانوني. انبثقت عن الميثاق صيغة تحمي الطوائف. انتفى في الصيغة حتى الاتفاق على الهوية والدور. في هذا الانتفاء قد تتبدى حركية ايجابية من خلال تفاعل رؤى متناقضة. الحركية أنجبت ثورة الـ 1958، وأعدت فتيل جحيم الـ 1975 حتى الاشتعال المدمر. طائف الـ 1990 أعاد انتاج الميثاق بصيغة دستورية لمرحلة انتقالية. اساءة استخدام هذا الانتاج بمباركة خارجية وتواطؤ داخلي تصح فيه سمة الوصفة الانتحارية. رسخت الوصفة الانتحارية الطائفية المحاربين قبلاً، صنّاع مرحلة هزيلة البنية مجتمعياً، ومتينتها تقاسما للمغانم. لم يخطئ المتسيّدون في رهاناتهم الاحتكارية لصوغ حقوق تباعهم من جهة، وإملاء ما يرونه واجبات عليهم من جهة أخرى، لم يخطئوا لأن ذهنية الناس ما تعودت نموذجاً آخر من الحكم. نخرت فيهم الزبائنية حتى باتت لهم داء ودواء.

وأطل فجر لبنان الرسالة في العيش المشترك، والمعنى في تلاقي المسيحية والاسلام. تجاوزنا معه مفهوم الوطن قبل أن ينجود الى نموذجية مفتعلة. أكدنا في النموذجية أن العالم يتطلع الينا مسيحيين ومسلمين يتماسون حياتياً. ما عاد يجذبنا البحث عن مشترك وطني في انساننا. ترسخ القول بالتنوع الطائفي يدير السياسة. نحر كل طرح أن هي السياسة، لا بد، من حيث كونها ادارة الشأن العام في سبيل الخير العام، لا بد لها من أن تتعد عن إرضاء طموحات الشأن الخاص، ولو كان خيراً خاصاً، الا اذا أتى الارضاء تحقيقاً لمساواة على اساس الحق والكفاية لا القنص والانتماء.

الصيغة مع الميثاق، ووليدهما الطائف، رأهما سمير قصير في 14 آذار يتهاويان. أذهلته مرحلة تأسيسية غير متوقعة بتعايرها. أعجب بانقطاعها الحيوي عن كل اشكال الفرز. كلها. أراد للناس أن يبنوا عليها وطناً. اقتنع بأن بناء النخب لا يطول. عوّل على شباب يكسرون طوق أنظومة سياسية استأثر بها مدعو صون وحدة بالشعارات لا ببرامج متينة. كان خائباً في أيامه الاخيرة. أراد مقاضاة كل تجار الكرامة. كلهم، ما عادت تعنيه مصطلحات التهافت على استقطاب الاصوات الانتخابية هزء بالتكفير المتبادل. هجس بمعارضة على المعارضة. اهتم بمحاولة رأب صدع متماد في تدوّقه بما قد يحصر من مكاسب افرقائه المقترعين على وطن مشعل ومستنزف.

صدق جهاد الزين بتخوّفه من ذهاب دم سمير هدرا بمعايير تغييرية لا يكنهما الا عاشقوا الكلمة الحرة. استشهاديو الحرية المنحورة ابداء، بها ينتصرون على قاتلي اعلامهم اللاطائفية.

قتلة هؤلاء بمكيا فيليتهم. اغتالوا روادنا بأفقههم المسدود الا بوجه نعوش مثقفين باحثين عن جمهورية فاضلة، لا قيام لها يبدو سوى في المابعد البعيد. جمهورية الانسان - المواطن متى ترحمين مناصريك؟ ألم تشعبي ترجمات؟ أما أن أوان تجريم الصيغة مع الميثاق؟